

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

### الفائدة الثالثة: الحكمة من انقراض عصر الاجتهاد

ذكر كثير من العلماء أن عصر الاجتهاد المطلق انقراض منذ مئات السنين، وأنا من المقلدين لهؤلاء العلماء في هذه المسألة.

وليس موضوع هذه الرسالة إيراد أسماء العلماء القائلين بانقراض عصر الاجتهاد، ولكن مرادي بيان ما ظهر لي من الحكمة في انقراض عصر الاجتهاد المطلق.

من المعلوم أن الأئمة الأربعة بقيت مذهبهم إلى زماننا هذا محفوظة، وقد اتبعهم عشرات الآلاف من كبار الأولياء وكبار أئمة الحديث، وكبار علماء التفسير، ولم يدع معظم كبار الأئمة ممن ظهوروا في القرون الثمانية الأخيرة (بل قبل ذلك بكثير) أنهم وصلوا إلى الاجتهاد المطلق. بل من نظر إلى حجة الإسلام الإمام الغزالي - مجدد القرن الخامس الهجري بلا نزاع - وهو إمام كل الشافعية الذي أتوا بعده، وجده لم يخرج عن اتباع مذهب الشافعي، إلا في مسائل ربما يعود معظمها إلى التصوف.

فما هي الحكمة من انقراض عصر الاجتهاد؟ وهل كان أفضل للأمة أن ينقرض عصر الاجتهاد أم أن يبقى يظهر مجتهدون يؤسسون مذاهب جديدة مستقاة من القرآن والحديث كما فعل الأئمة الأربعة؟

لا شك أن هناك منافع لو ظهر مجتهدون في العصور المتأخرة، لأن الأمة تنتفع بعلم العلماء، لا سيما المجتهدين، ولكن لماذا انقضوا؟

والذي ظهر لي والله أعلم، أن الاجتهاد المطلق كان في خير العصور، وهي القرون الأولى الفاضلة، عندما كانت التقوى والورع والصدق أمراً لا يختص به الآحاد، فكان من يبلغ درجة الاجتهاد المطلق، يقر له بذلك

أهل العلم والفضل والتقوى والورع، فيعرف الناس خاصتهم وعامتهم أنه بلغ رتبة الاجتهاد، وأنه أهل لأن يُتَّبَع.

وأما لو ظهر في العصور التي فشا فيها الكذب والدعوى الكاذبة، والتصدر باسم الدين لأجل حطام الدنيا وحب الرئاسة وكثير طعن الناس بعضهم في بعضهم الآخر، فإن هذا المجتهد سيكون محل نزاع، وسيتم الخلاف عليه، ويحصل التناحر والفتن بين أتباعه وبين أتباع المذاهب المتفق عليها. فيصير ذلك سببا للفرقة، ويصير سببا للطعن في دين هذا المجتهد، واتهامه بالخروج عن أقوال الأئمة.

ثم لو ظهر مجتهد وانفقت الأمة عليه، فماذا نفعل بمذهبه بعد تقرر المذاهب الأربعة وقيام آلاف من كبار الأئمة بخدمتها وتدوينها وبيان ضوابطها، والاستخراج على قواعد أئمتها وغير ذلك؟ هل ننتظر مئات السنين إلى أن يأتي أئمة يحررون هذا المذهب الجديد ويبينون ضوابطه ويستخرجون أحكام ما لم ينص عليه صاحب هذا المذهب؟ وهل نترك مذاهب أثبتت جدارتها على مرور أكثر من ألف عام لتتبع مذهباً جديداً يحتاج إلى توضيح وتنقيح؟ فالشافعي كتب كتابه الأم، ومع ذلك اختلف أتباعه في فهم مواضع عدة من كتابه، وصار في المسألة الواحدة آراء متعددة، فمن سيقوم لنا بمثل هذا لصاحب المذهب الجديد؟

ونقول: إن ظهر مجتهد في العصور الأخيرة، فهذا ينفعه لنفسه ويعمل باجتهاد نفسه لنفسه، وأما أن يدعو الناس لاتباع مذهبه فهذا لا حاجة لنا به، ففي مذاهب الأئمة الأربعة ما يغني عن مذهبه، ويمكن أن ينتفع ببعض فتاويه بعض تلامذته وبعض من يستفتيه في قضايا جزئية.

ولكن هناك سبب آخر أخطر مما مرّ وهو أنه لو لم يُغلق باب الاجتهاد، لادعى الاجتهاد كثير من الناس إما لجهلهم وتوهمهم بلوغ رتبة الاجتهاد، إن حفظوا آيات الأحكام وأحاديث الأحكام، وعرفوا الخلاف والإجماع وطرفاً من علو اللغة العربية، وهذه الأمور متوفرة في تلامذة النووي وفي كثير من تلامذة تلامذته، بل متوفرة في كثير من مشايخ العصور المتأخرة، ومن شاء فليُنظر في مؤلفات السيوطي التي فاقت خمسمائة، وصارت مرجعاً

لكثير من الأئمة بعده، ومع ذلك لم يقر له العلماء بأنه بلغ رتبة الاجتهاد المطلق، رغم أنه أوضح أن مراده مجتهد مطلق منتسب وليس مجتهدا مستقلا، وهذا لم يُسَلِّم له.

فلو كنا في عصر يظهر فيه مجتهدون لادعى كثير من أهل الضلال الذين يتزبون بزي أهل العلم، أنهم بلغوا الاجتهاد المطلق، ولانحلوا عن اتباع الأئمة، ولأفسدوا في الأرض فسادا كبيرا، كما ظهر لنا من كثير من مشايخ الفضائيات الذي يفتون بالتشهي، من غير قواعد ولا ضوابط.

فلذلك يظهر والله أعلم أن من رحمه الله بالأئمة أن العلماء يكادون يكونون متفقين على انقراض عصر الاجتهاد، وبذلك يُغلق باب الانفلات من اتباع المذاهب الأربعة، بدعوى الاجتهاد، وتنتشر الفتن لإثبات أو نفي أن هذا الشيخ أو ذاك مجتهد أو ليس مجتهدا.

نعم ليس باب الاجتهاد مغلقا لأنه يوجد نصٌّ - فيما أعلم - على امتناع الاجتهاد في هذه العصور، بل لقصور العلماء في القرون الثمانية الأخيرة أو العشرة الأخيرة عن بلوغ رتبة الاجتهاد، كما أنه لا يوجد نص يمنع أن يفوق أحدنا الأئمة الأربعة علما وورعا، ولكننا نعلم بما يشبه الضرورة أننا قاصرون عن بلوغ ربتهم مهما فعلنا.

وكما أنه يوجد في العلوم الكونية "عبارة" كان لهم أثر كبير في تغيير مجتمعات البشر، ونجد أنفسنا عادة عاجزين عن بلوغ ما بلغوه، فكذلك ذكاء وورع أهل العصر لا يقارن بما كان عليه أئمة السلف.

ومن لا يصدّق فليقرأ سيرة أبي حنيفة رضي الله عنه، يجد ما فيه شفاء.

**وكما أن أحدنا لا يستطيع أن يصل في طول الخلقة إلى طول سيدنا آدم عليه السلام، كذلك لا نستطيع أن نصل بالتقوى والورع والذكاء إلى رتبة المجتهدين المعبرين، فذكاؤنا وفطنتنا محدودة بما قدّر الله لنا كما أن قوة أبداننا محدودة ولا نستطيع أن نصل في قوة البدن إلى ما كانت عليه قبيلة عاد مثلا.**

أرجو أن يكون في هذا ما يوضح بعض الحكم في انقراض عصر الاجتهاد.

والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله على النبي المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه.

كتبه أبو الطيّب يوسف بن عدنان المناوي

2017-6-25

وأرجو ممن وجد خطأ أن يرسلني مشكورا

[almunawi@hotmail.com](mailto:almunawi@hotmail.com)

أو على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/youssef.abuttayyeb>

---

يمكن تحميل هذا الفائدة وغيرها قريبا من موقع الإمام المناوي

[www.almunawi.com](http://www.almunawi.com)